رمضان .. واليمن .. والزبيب!

لواء د. سمير فرج

1 يونيو 2017

إنه يوم الجمعة من شهر أبريل وأنا طالب فى الكلية الحربية عائداً من إجازتى الأسبوعية، ضمن جموع الطلاب. نصطف فى فناء الكلية فيما يعرف باسم «طابور التمام».

وفجأة يعلن كبير معلمى الكلية الحربية قراراً بموعد تخرج الدفعة يوم الخميس المقبل وأنه اعتباراً من صباح الغد، السبت، تبدأ الامتحانات النهائية، المؤهلة للتخرج. ولمن لا يعلم، فهذا تقليد معمول به فى جميع دول العالم، عندما تكون الدول فى حالة حرب، أو تعبئة لحرب، وفى حاجة إلى أعداد إضافية من الضباط.

وتخرجت ضابطاً، لانضم للقوات المسلحة المصرية، سنى سبعة عشر عاما، أى والله سبعة عشر عاما وتوجهت على الفور، إلى وحدتي، كتيبة مشاة دون خوض دورات تخصصية فى إشارة إلى ضيق الوقت، بما لا يسمح بالانتظام فى تلك الدورات، فكان أصغر جندى فى الكتيبة، أكبر منى فى السن.

وما هى إلا أشهر قليلة لا تتعدى أصابع اليد الواحدة حتى صدرت الأوامر بتحرك الوحدة إلى اليمن، فاستقبلنا «الباخرة السودان»، من ميناء الأدبية جنوب السويس، وأبحرنا فى اتجاه ميناء الحديدة اليمني. كنا عشرات الضباط ومئات الجنود تغمرنا السعادة لتكليفنا بمهمة نصرة أشقائنا فى اليمن وكيف لا ونحن الجيل الذى تربى على مبادئ القومية العربية على يد عبدالناصر.

وصلنا إلى الحديدة كان الجو حارا، والرطوبة عالية وبدأنا التحرك فى اتجاه العاصمة

صنعاء فى طريق طويل، هو الوحيد الممهد، علمنا أنه هدية من الصين إلى شعب اليمن. كانت أول مرة نشهد الجبال المرتفعة، ونتعرض للطرق الملتوية بينها فكان السائق الجندي، بجانبي، خائفاً، فلم نعتد القيادة فى مثل تلك الطرق الجبلية، وعلى مثل تلك الارتفاعات الشاهقة.

وما أن وصلت إلى وحدتى إلى صنعاء، حتى تلقينا الأوامر بضرورة التحرك فى أحد الاتجاهات، لإنقاذ القوات المصرية المحاصرة، هناك، من القوات الموالية للإمام محمد البدر. واصلنا التحرك، ثلاثة أيام متواصلة، دون توقف، حتى وصلنا إلى منطقة تسمى «بيت السيد» وصلنا إليها فى أول أيام شهر رمضان المبارك فتناولنا، سريعاً، إفطارنا المعد فى مطبخ الكتيبة.

بعدها صدرت الأوامر إلى قائد الكتيبة، مباشرة، بخروج سرية من المشاة قوامها 120 جنديا، و4 من الضباط لمهاجمة، واحتلال أحد الجبال، لفتح الطريق أمام القوات المصرية المحاصرة. ومن ناحية أخري، يتم تكليف فصيلة من المشاة تتكون من 40 جنديا، بقيادة واحد من الضباط لمهاجمة واحتلال جبلً آخر، أصغر فى الحجم، لتعزيز المهمة الأولي. فاختارنى قائد الكتيبة، رحمة الله عليه، من بين ثمانى فصائل أخري، لأكون ذلك الضابط الذى يتولي، بفصيلته، هذا الهجوم التعزيزي.

وما أن أحكم الظلام قيوده، حتى بدأت التحرك، بفصيلتي، لمهاجمة الجبل تحت حماية ودعم قوات المدفعية. ومع ظهور أول شعاع للفجر، كنت قد وصلت إلى قمة الجبل، وبدأت فى نشر قواتى الصغيرة أعلاه. ومع بزوغ الصباح، تلقينا أول هجوم من القوات اليمنية، على موقعنا، وسقط منا أول شهيد ... وبالتالي، أصبحت أنا وقوتى الصغيرة، محاصرين أيضاً.

تبين لنا فى تلك اللحظة أننا بدأنا صيام ثانى أيام الشهر الفضيل، دون تناول وجبة السحور، فى الليلة الماضية، أثناء تقدمنا نحو الجبل ودون الاستعداد بوجبة للإفطار، سوى ما نحمله

معنا من «تعيين الطوارئ»، وهو عبارة عن قالب فولية لكل جندى أو ضابط، ومعه زمزميته من المياه.

وهكذا وجدت نفسى وأنا فى السابعة عشرة أقود هذه المجموعة، فوق جبال اليمن القاسية محاصرين وصائمين ولا أملك سوى قالب الفولية، وزمزمية المياه لكل جندي، وبطاريات اللاسلكي، المقدر لها النفاد فى خلال الساعات القليلة المقبلة وانهمكنا فى إعداد دفاعاتنا مستخدمين حجارة الجبل، حتى موعد غروب الشمس، وتناولنا الفولية، عندئذ، وشربنا ما تيسر لنا من الماء.

وهبط الليل على قمة الجبل واشتدت الرياح تشق صدورنا، وتنخر فى عظامنا ليس لدينا ما نحتمى به فالتففنا حول ونيسنا الوحيد، وهو الراديو «الويلكو» الصغير، الذى اشتريناه من صنعاء والتقطنا موجات الإذاعة من القاهرة، التى كانت مشغولة، ومترقبة فى تلك الليلة، للقاء السحاب بين قطبى الغناء والتلحين، أم كلثوم وعبد الوهاب، فى رائعتهما «أنت عمري» واستمعنا إليها ونحن محاصرون على قمم جبال اليمن، فارتبطت لدي، للأسف، وعلى عكس عموم المصريين بذكرى الحصار الأليم. حتى أننى عندما ترأست دار الأوبرا المصرية، بعد ذلك بعقود طويلة، لم استطع فك ذلك الارتباط بين تلك الأغنية الرائعة وما لها من وقع مؤلم على نفسي، فوجدتنى أتفادى تضمينها فى برامج الأوبرا.

وعند الصباح، كنت قد فقدت الاتصال بقيادتي، لنفاد بطاريات اللاسلكي، تماما كما نفد طعامنا وشرابنا وجنودى حولى ليس لهم إلا الله ثم قائدهم والجبل خال من أى نبتة نقتات عليها، عندما يحل موعد الإفطار. فنظرت فى جميع الاتجاهات، ورأيت قرية على سفح الجبل، بدا، من البعد، أن أهلها قد هجروها، نتيجة للمعارك الدائرة فى المنطقة، وهو ما تأكدنا من صحته، بعد مراقبة طويلة.

فكلفت دورية بالنزول إلى القرية للبحث عما نأكله أونشربه، وعادت الدورية من القرية لتؤكد أنها خالية تماماً فيبدو أن أهلها قد حملوا معهم كل ما يملكون إلا من أجولة من العنب

المجفف، «الزبيب»، إذ بدا أن القرية كانت تعمل كلها فى زراعته فى واديها، وخلّفوا وراءهم ما لم يستطيعوا حمله من تلك الأجولة.

كما عثرت الدورية على أحد آبار المياه، وعادت إلينا بالماء والزبيب. وأشار على أحد الجنود بأن أفضل طريقة لأكل الزبيب، ستكون بغمره فى الماء، لعدة ساعات، قبل موعد الإفطار، ليكون وجبة ملائمة لنا.

وهو ما كان غذاءنا، بالفعل، لمدة أربعة أيام متواصلة، عشناها محاصرين، قبل أن تأتينا النجدة، ويتم فتح الطريق.وعلى الرغم من عدم قدرتي، حتى يومنا، هذا على سماع أغنية «أنت عمري»، فإننى أحب الزبيب المنقوع فى الماء، وأحرص على تناوله خلال شهر رمضان المعظم، من كل عام.

Email: sfarag.media@outlook.com